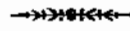


في التاريخ السياسي :

المأساة الفلسطينية

ومشروع التقسيم البريطاني

بقلم باحث دبلوماسي كبير



لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية في تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا في «الرسالة» أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موقفاً ، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم ، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية في استنتاجاتها وفي توصياتها ، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعنف من السخط والانكار المطلق لا في فلسطين وحدها ولكن في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكيف اعترفت فلسطين أن تستأنف النضال في سبيل حياتها وكيانها ، وكيف تقعد اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه ، فإنه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التي أقربت مقترحات اللجنة على عجل لم تمتد في مثل هذه المناسبات الخطيرة ، مستغنى عن هذه العوامل الجديدة التي ظهرت في الميدان منذ ظهور التقرير ، والتي لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود في فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تفرحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضي القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات الميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل في التقدم والنهوض ؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفي للحكم بأن فلسطين تعجى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبساتين صحراوية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها ؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربية إذا اقتطعت منها كل

ربما قصة « تاييس » لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع لترجم الانجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدده وبراعة العبارة سحرها . ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية : هايبشيا « للكاتب الانجليزي « تشارلز كنجزلي » قرأتها بضعاً ، ثم سألتني : ما رأيك ؟ قلت : غريب . قال : إن الروايتين شيء واحد . قلت : صحيح

والواقع أن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبشيا بلا أدنى شك . وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب - أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلي إلى الموضوع . ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبشيا في رواية كنجزلي ، والمصر موالعصر والبلاد هي البلاد ، وكل ما هناك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان ، وأن تشارلز كنجزلي أستاذ مؤرخ . رأنا مع ذلك أفضل رواية هايبشيا وأراها أكبر وأعنى وأملأ لنفس وأمتع للعقل ، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن ، ولكن الصور في رواية هايبشيا أتم وأصدق ، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل . وفي رسي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب ؛ أما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم

وتشارلز كنجزلي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويربك الناس والأشياء والمعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائنة والفردية بدقة وأمانة ، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ما وقع في نفسه من ذلك العصر ، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشنزم أي الذين يصورون وقع المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسمنى الآن أن أذكره وأمثال هذا كثير في الآداب الغربية ، وليس له في الأدب العربي نظير ، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى نتسع لوجوه التعليل المختلفة .

ابراهيم عبد القادر المازني

والوطن القومي اليهودي في سبيل حريتها وعزوبتها ، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التي لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازرتها ، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم في قلبها وفي أطيب بقاعها بملكية يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية ، تنازعها البقاء وتندرها بالفناء العاجل بما هيء لها من أسباب التفوق النشائي والاقتصادي والاجتماعي

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لا تقف وحدها في هذا النضال الذي هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت ، فإن شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا ، فألقى رئيس الوزارة العراقية تصريحاته الرسمية المعروفة في إنكار مشروع التقسيم والحلّة عليه بشدة ، وفي التنويه بما تعزّمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لاهلي فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها ؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية ؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج في بغداد وغيرها ؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية في القاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم ، وفي توجيه الاحتجاج الرسمي إلى لجنة الانتداب بمصبة الأمم ، وقام الشعب السوري بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين في موقفها ؛ وقامت مظاهرات مماثلة في الحجاز ، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها في جهادها . كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل في صمت وهدوء ؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية في بيانه الرسمي بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ما جرى من اتصاله بالحكومة البريطانية في شأنها أكثر من مرة ، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعي بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب

سواحلها وثغورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة ؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بإنشائها تشمل في الواقع كل قواعد فلسطين وثغورها التاريخية عدا نغريفا الذي يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوي الذي خصص للعرب ؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التي لبنت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت إشراف عصبة الأمم أو بالحرى تحت إشراف الانتداب البريطاني ، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية في مصلحة الدولة اليهودية الجديدة ؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوّه في تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب ، وتقول لنا إنه « سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب في البلاد المجاورة ، وذلك في كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأمان المقدسة بيد اليهود »

على أن هذه الألفاظ المسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهي أن مشروع التقسيم يححو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أبقاضها وتراثها التاريخي مملكة إسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم ؛ نعم إن المساحة التي تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية ، ولكنها تحتوي كما قدمنا على أطيب ما في فلسطين من قواعد وثغور ، واليهودية تغدو في هذا الحيز الضيق أقوى وأشد إيماناً بالمستقبل ؛ ثم هي مع ذلك بدء فقط ؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهي مئوى تراثها الروحي وذكرياتها المقدسة ، ولكنها تنعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً ، وكونها وهي في يد انكثرتا أقرب إلى نفوذهم ؛ ومن يدري فقد تسنح الفرصة فيها بعد لاستردادها بطريقة من الطرق ، وبذلك يصبح ظفر اليهودية بأحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملاً شاملاً

والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة في إدراكها ، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الاجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي ، والذي تلوح به الأمم المجاهدة في مواقف الحياة والموت ؛ ولقد جاهدت فلسطين منذ تكبت بالانتداب

من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفظنة لم يفتأ أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الواقع، ولم يفتأ بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوى عليه من دلائل لاستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فإن ذلك لا يفي أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطاني أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التي جرت حوله والتي لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم، بل آثر أن يرجي قراره حتى تنتهي لجنة الانتداب الداعية لعصبة الأمم من بحث المشروع، وهو الآن أمامها قيد النظر.

والخلاصة أن السياسة البريطانية لاتزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية في مفترق الطرق، وهي إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية، فإنها لاستطيع أن تنفي عن موقف الأمم العربية والإسلامية، وهي جميعاً تؤيد فلسطين في ظلامتها ومعنتها؛ وانكترا التي تربطها بالأمم العربية والإسلامية روابط صداقة متينة هي اليوم أشد حاجة منها في أي وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومعالفتها؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربية في طريق المواصلات الأمبراطورية أمر جوهري بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والأمبراطورية البريطانية؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائي الذي قدر لها؛ وللسياسة أعاجيب لاتفنى وكما سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وانكترا، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الأمبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذي يفرض عليها، ولكن مصر لم تنل الوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الناشئة أن تحتج، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق؛ وكل ما رجوه في هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة في دفاعها المؤثر عن كيانها، وأن يكال جهادها بما يحقق أمانها وطمانينتها.

ومصالحهم، مؤثراً ألا تكون هذه الساعي موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين.

والواقع أن قيام اليهودية في فلسطين في مثل هذا الحشد القوى المنظم، خطر داهم لا على فلسطين وحدها، ولكن على العالم العربي والإسلامي كله؛ ويزيد هذا الخطر ويذكره أن تنظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربي؛ وهذا الخطر متعدد النواحي، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكون هذه الدولة الجديدة التي لايتأتى لها البناء إلا على ما تستطيع تقويضه من صروح الأمة العربية، مصدر اضطراب دائم في هذا الجزء من الجزيرة العربية؛ وخطرها السياسي على كيان الأمة العربية ظاهرة لا يحتاج إلى بيان؛ أما خطرها الاقتصادي فتحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المروقة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية في صميم المجتمع العربي والإسلامي على هذا النحو، هو الخطر المنوي إذا صح التعبير؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكري والفلسفي تضطرم دائماً روح الثورة والانتفاض والهدم، وقد كان هذا الروح الثوري الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التي قلبت أوضاع المجتمع، وبشت إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى؛ ويكفي أن نمثل لذلك بالشيوعية التي تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم، فهي من نفثات العقيلة اليهودية؛ ومذ حلت الصهيونية في فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تسرب إلى مصر وسوريا والعراق؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التي تحملها اليهودية معها إلى فلسطين، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهماً على الأمم العربية التي تجثم في صميمها.

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر، وكلها من وراء فلسطين في درته ومقاومته؛ وقد أبدت فلسطين عنزمها جلياً قاطعاً على استئثار النضال إذا لم تسمع شكايها العادلة، وإذا أريد أن تفرض عليها سياسة التقطيع والتزريق بالقوة القاهرة. على أننا